مأزق التقليدية والحداثة في المركزيات الثقافية

محمد الشحي

يستمر الحديث عن الثقافة وما ينتج عنها، إثر الاحتكاك، من صدامات ثقافية تتجلى في الصراعات الأصولية في كل ثقافة. هذه الحركة الدائرية للثقافات، بدءًا من الثقافة المحلية (التقليدية)، واحتكاك هذه الثقافة بنظيراتها في الخارج، ثمّ استقبال الثقافة مجددًا ولكن بثوب جديد وما ينتج عن هذا التجديد من صراعات داخليّة، هذه الحركة الدائرية تحتاج إلى تسليط ضوء النقد عليها وآلياتها كي نتمكن من إدراك سيرورتها. يطرح عبدالله إبراهيم، في مقاله "العالم المعاصر وتنازع المركزيات الثقافية"، تحليلا ثقافيا لظاهرة التمركز الثقافي في العالم الذي نتجت عن التنازعات الثقافية الكبرى.

استهل إبراهيم مقاله بالتأكيد على دور الثقافة ومكوناتها في لعبها الدور الحاسم في تثبيت المعايير التفاضلية بين الشعوب، وقدرتها على أن تهيمن وتحلل وتحرم وتخفض منزلة فكرة ما أو ترفعها؛ مما يجعل الثقافة تعيش في ثنائيات الخير والشر، الشرق والغرب، التأصيل والتحديث. وفي هذ الصراع الثقافي والحضاريّ في العالم الحديث، يلاحَظ آلية تراتبية ثنائية تمايز وتفاضل بين ما هو غربي أصيل و ذي مكانة رفيعة، وبين ما سوى ذلك من الشواذ التابعين لتلك الحضارة الأصيلة. كما تحدث عن تسرب هذه المفاضلة إلى علوم اللغة والتاريخ والأعراق والفلسفة والأنثروبولوجيا. وهنا نجد الكاتب يتجاوز البسطات النظرية المعتادة للثقافة وصراع الحضارات ليتحدث مباشرة عن تمثلات هذه المفاهيم على أرض الواقع؛ مؤكدا على خطورتها وفعاليتها في تثبيت التصورات والقيم والرؤى.

وفي ظل الحديث عن صدام الحضارات، لا يمكن إغفال مفهوم "العولمة" ودوره في هذا الصراع. فالثورة المعلوماتية الحديثة، وسرعة الاتصال انتهكت كل الثقافات، وأصبح لا يمكن الحديث عن ثقافة غير قابلة للاختراق؛ لتصبح الثقافة عابرة للقارات. ينتج عن ذلك صدمة ثقافية تهز الثقافات التقليدية وتجعلها أمام احتمالين: إمّا الذوبان في الثقافة الأقوى، وإمّا الالتفات إلى الذات والانكفاء عليها، لتنتج عن ذلك بالتالي جدلية "الأنا" و"الآخر"، وفي كلتا الحالتين تكون الثقافة التقليدية أمام خطر الانقراض أو الاحتماء بالماضي والهرب إليه من الوحش المتخيَّل المهدِّد لها.

يستطرد الكاتب في توصيف سيرورة دورة الثقافة هذه، ليؤكد على أنّ هذا الوصف يصح حين يكون التبادل الثقافي متكافئًا بين الثقافات، أمّا حينما لا يكون كذلك فإن ذلك سيؤدي إلى تدمير الأنساق الثقافية التقليدية لضعفها أمام قوة الثقافة العابرة للقارات. ويصرّ الكاتب على أن التبادل غير المتكافئ بين الثقافات ينتج لنا أيديولوجيًا عند الثقافة المهزومة أيديولوجيا تختزل الآخر إلى مكون هامشي يستتبع تبعية له في نهاية الأمر.

ينتقل الكاتب إلى تحليل نشأة مفهوم "التمركز"، نفسيًّا، ليعرفه بأنّه تعالي النسق الثقافي (بمعانيه الدينية، الفكرية، العرقية) على بُعده التاريخي، فتُنتج ذاتًا مفكرة متعالية، مشبعة بالأنا، ترى في نفسها أنّها الأفضل، ويجب على "الآخر" المشوّه أن يتبع قالبه الخاص به. ولكنّ تعاليه هذا تعرّيه الآلة النقدية التي تستنطق المتون والذاكرة التاريخية لتكشف عن التكوينات الداخلية المؤسسة لهذه الذات.

يفرق الكاتب بين هويتين متقابلتين؛ هويّة ثقافية لا تدّعي الحتمية والنهاية، وهويّة مركزية هي على العكس من الأولى؛ تشكل أيديولوجيا قارّة وكونية في آن واحد، وتصطنع أصولا عرقية ودينية وفكرية تقتات منها أمام الشعور بالنقص أمام الآخر، ويفتعل علاقات وهميّة لا وجود لها إلا في ذهنه.

ثم ينتقل الكاتب تدريجيًا إلى الحديث حول نقد المركزية الغربية والمركزية الإسلامية؛ كون النقد يمثل الدعامة الأساسية لهوية الاختلاف التي تعطي الهوية الثقافية مرونة تمكّنها من التعاطي مع مكونات الثقافات الأخرى (دين، فكر، عرق). ويؤكد على أن النقد يؤسس طريقة في التعامل بين الذات والآخر لا تقصد إلى القطيعة بينهما قدر قصدها لإقامة جسور التواصل بينهما. ويمثل على ذلك بحال الثقافة الإسلاميّة التي تعاني من عدم الاهتمام بمسار (دورة) تلقي الأفكار من الثقافة الغربية (المركزية)، مما أنتج حقل صدامات لانهائية بين المفاهيم والمقولات والتصورات المستعارة إليها.

وفي معرض حديث الكاتب عن أصول التمركز الغربي، تطرق أولا إلى ظهور المصطلحات التي أسست لتلك المركزية؛ حيث أعاد ظهور مصطلحي "أوروبا" و"الغرب" إلى العصر الوسيط الذي تطورت فيه جملة من العناصر الاجتماعيّة والدينية والسياسية والثقافية فاندمجت لتشكل هوية الغرب بما تحمله من دلالات المركزية والإقصاء للآخر والتبعية. وليس أدل على ذلك من حملات تنصير العالم العربي، واعتباره تابعًا يجب أن ينضم إلى أوروبا المسيحية في الدين الحق، رغم أنّ مهد الديانة المسيحية في العالم العربي، كما أنّ أوروبا لم تكن مسيحية فيما عدا حوض البحر المتوسط قبل أن يتم تنصير بقية أوروبا الوثنية. الأمر ذاته فيما يتعلق بأصول المركزية الإسلامية في مروياتها، طوال القرون الوسطى، وبخاصة تلك المرويات الجغرافية والدينية وكتب الرحلات؛ فالعالَم خارج الإسلام غفل، مبهم، بعيد عن الحق، بانتظار عقيدة صحيحة لإنقاذه من ضلاله. ثم يعود لتتبع ظهور المصطلحات ذات الدلالة المركزية؛ ففي القرون الوسطى بدأ مصطلح "العالم الإسلامي" يحل محل "دار الإسلام"، مما يجعل الدلالات الثنائية تتداعى من قَبيل "العوالم الأخرى" المختلفة عن "العالم الإسلامي" المثالي.

وفي حديثه عن تنازع المركزيات الثقافية، بين التقليدية منها والمدنية، يؤكّد على الازدواجية التي تعيشها المجتمعات الإسلاميّة بين القيم الروحية الشرقية والمادية الغربية. مما جعل المجتمع في مأزق أخلاقي بين الالتفات إلى التاريخ والانكفاء على الذات والجمود في المكان الذي هو فيه، وبيّن التعاطي مع المركزية الغربية التي غزت العالم سياسيًا واقتصاديًا ومعرفيًا. ونتج عن ذلك تيار يدافع عن الهوية التقليديّة المميزة التي أوقعتهم في تقديم قراءات هشّة للإسلام تقوم على فهم مدرسي ضيق، وسعت إلى البحث في تاريخ الإسلام الأول عن تصورات تقبل الآخر وإسقاطها على الحاضر الذي يكذب تلك المقدمات عمليًا. وتيار آخر، قال باحتذاء الغرب واستعارة حداثته والاندماج في عالمه الذي ضمن حقوق الإنسان ورسّخ سننا قانونية وحقوقية واجتماعية في دولة المؤسسات، متناسين النسق الثقافي الخاص الذي ولّد هذه المفاهيم وانبثقت منه، ما من شأنه أن يوقع العالم الإسلامي فيما وقعت فيه أوروبا القرون الوسطى، وهو ما نراه حاليا في العالم الإسلامي؛ فكأننا أمام أوروبا جديدة سيأكل بعضها بعضًا قبل أن تستقر على تلك المفاهيم الإنسانية.

أخيرًا أقول إنّ عبدالله إبراهيم قدّم لنا توصيفًا جيدا حول المركزيات الثقافية، الغربية والإسلامية، وطبيعة تكوّن كل منهما، وقدّم محاولة لتحليل تكوّن تلك المركزيات نفسيًا إلا أنّه أعوزه العمق النفسي قليلا؛ فلمْ يُشر إلى الرغبات النفسية العميقة والحاجات المحركة لتلك الرغبات. وأراني أتفق معه في كثير مما طرحه في مقاله من دورة الثقافات فيما بينها وتداول أفكارها، إلا أنّ الطرح الموسوعي أضعف قليلا من لغة المقال وأوقعه في تكرارات لا داعي لها.

Alshehhim@hotmail.com